انّ الحياةَ عبر

(خطاب نثري ألقاه في حفلة جمعية نهضة الحياة السورية في السويداء
في ١١ أيار سنة ١٩١٠)

عبرٌ كلها الحياة - يا اخواني و يا سيداتي - الحياة كلها عبر. عبرٌ تتلى علينا في كل يوم ونحن بها قلما نعتبر. عبر تتلوها افواه الحوادث وتدل عليها المشاهد ويعربها لسان حال الموجودات ونحن عامة نفتكر الا بما نراه مباشرةً منها وما نسمع به عرَضاً عنها. وقلما نهتم بالبحث فيها او بالتأمل او بالامعان. بل كثيراً ما نكتفي بما يقع عليه النظر وما يبلغ الاذان. دون ان نتساءل من اين والى اين او كيف ومتى

تعودنا ان ننظر الشيء دون ان نتأمل فيه واذا تأملنا او افتكرنا في التأمل نكتفي غالباً بحالة الحاضرة ونتقاضى عما كانت عليه وما تئول اليه. وهكذا نمرّ امام الشيء ونرمقه بالبصر وقلما نتذكر ما فيه ان نتبصّر مستقبله

نمرّ بالشجرة الكبيرة مراراً عديدة ونتفيأ تحت اغصانها الباسقة في الجوّ الكثيفة الظل وقلما نفتكر بانها نبتة بزرة صغيرة نثرت في التراب ايام وما ابتلّت برطوبة الارض أفرخت وتعاهدتها يدُ العناية فنمت ومرّت عليها الايام فكبرت ورزانتخرها السوس فتقع

ونمرّ بالزهرة الجميلة ساعات تأسر وتخمر الطبيعة وتمتع العين بجمالها الرائع وقلما نفتكر في كيفية اعتراء قشرة بزرتها وامتصاصها الغذاء وتلونها البديع

ونجتاز النهر او نجلس على ضفته نستنشق الاذان بخريره ونُهيج الفؤاد بتلألؤ مائه وقلما نفتكر في النبع او في نهاية سير الماء.

واسير على شاطئ البحر راقب المدّ والجزر والاحظ تعاقب الامواج وتلاطمها وقلما تقول لماذا هذا

يهب علينا الهواء وتمطرنا السماء تشرق الشمس علينا وتغيب عنا ويسير لياليا القمر هلالاً فبدراً. ويطول النهار ويقصر وقلما تتساءل عن سرّ ذلك

تدخل القصر وتفقد حدائقه وصاغاته وتعهد انيته ورياشه وقلما تفكر باصلي مكانه او بالمواد المؤلفة منها موجوداته

تقف على اطلال العمران وتشاهد اخرابَ المتراكمة فيشمئز منها النظر وتنقبض النفس وقلما تفكر بايام عزها وبانها كانت عامرة آهلة

تزار قلعة بلبك يلتهي بالاقتناص عن تذكر مجدها شيدها وزار بارز تلهيه عظائمها عن التفكر في ما ربما تأول اليه من الخراب

وكذا تعامل الولد معاملة صبيانية محضاً كأنه سيظل صغيراً الى الابد وتنسى ان الصغير سيكبر

كما انك اذا رأيت الآنسة المتفننة او السيدة المترفة لابسة ثوباً بديعاً مخرّماً ومخرّجاً على اخر زي ومهندمة شعرها بصنع جميل قلما تتساءل عما صرف من الوقت في هذا السبيل

وهكذا نقيس المسموع على المنظور

نسمع بانسان عظيم مآثر شهرته البلاد فتمثله بعظمته دون التفكر في ما اتاه ايها او في ما عاناه للوغها من المناصب ومثله العمل العظيم تمثله بحاله الحاضرة وقلما تفكر بما كان وما سيكون

على ان نشوء الاعمال كنشوء الانسان واحوالها تقاس على احواله من وجود عديدة. فكما ينمو هو بالتدريج شيئاً فشيئاً هكذا هي ايضاً تنمو وكما يعاني هو من جواذب ودوافع ناموس تنازع البقاء هكذا هي ايضاً تعاني

ومن الغلط الضرر لا كتفا بحاضر الامور دون الرجوع الى ماضيها والنظر الى مستقبلها . قبل الحكم عليها الحكم المطلق

فكم تقدرون عدد الذين افكروا في كيفية تأسيس جمعية نهذيب الفتاة السورية وفي ما تقاسيه من المشقات في سيرها وما تستطيع عمله في المستقبل ما دامت الاحوال موافقة لها ؟

انا اقدرهم بعدد قليل جداً لان الانسان ما تعوَّد بعد ان ينظر بالبداهة الا الى الحاضر . وبناء على هذا الامر أسألكم ان لا تنظروا الى هذه الجمعية من حيث هي اليوم فانها لا تزال اليوم في عهد التأسيس في مهد الطفولية . بل توسموا في النظر اليها واعضوا في مستقبلها فتأكدوا انها بالتعاضد والاجتهاد ستخدم البلاد اشرف خدمة . ستعمل على تهذيب الفتاة السورية المستعدة وكفاها بهذا العمل فضلاً وفخراً . ستكون شيئاً مذكوراً في تاريخ بلادنا المحبوبة . وانا بازمها شهور . واعوام لتتمكن من ان تكون هذا الشيء

فتوسموا بنظركم ذا . وعودوا معي هنيهة الى التاريخ . فاروي لكم شيئاً مناسباً للاعتبار به عن جمعيتين نسائيتين عظيمتين . نشأت الاولى منها في الغرب من مئتين وتسعين سنة ونشأت الثانية في الشرق من ثلاثين . ولا تزالان الى اليوم سائرتين في سبيل النجاح المستمر

مئتان وتسعون سنة مرَّت على الاولى وهي آخذة بالتقدم والانتشار فكانت شان كل عمل نافع تقف وطوراً تسير حيناً تتقهقر واحياناً تتقدم . وما زالت تجاهد في سبيل الحياة بنشاط واخلاص حتى بلغت هذا العمر الطويل وباتت بآثارها العظيمة من المكانة في العالم ما لم يبوئها التاريخ عن مثله تماماً منذ تكوُّن الانسان ولو شئنا ان نعدد الفوائد العظيمة التي استفادها منها البشر لما استطعنا الى ذلك سبيلاً لان ذلك مستحيل

ادياراً عديدة، فخمة كبيرة، والوف من الراهبات العاملات منتشرات في كل الارض بين المتمدنين والمتوحشين ينفحن البشرية في كل ناحية بالتعزز به دعائم الانسانية غير بين الفقراء والاغنياء ويهذبن الاحداث ويعلمنهم ويمرضن المرضى ويحسنن الى الفقراء ويبثثن روح الديانة والتقوى على ما تعلمن حتى الصنائع ايضاً يعلمنها الطالبات ولا يدخرن وسعاً في تحقيق شقاء الناس

عن ولا اوفيكم تعريفاً بين عن ملائكة الرحمة من اخوات المحبة — المعروفات عندنا بالراهبات الانكليزيات وجميعهن شبيه رهبنة تقريباً من حيث انها من عذارى كريمات المحتد البتولية غاية قداسة وموقفن نفوسهن على خدمة الضعفاء والمساكين

فهذه الجمعية او الرهبنة كما شئتم سموها لم تظهر الى عالم الوجود عظيمة كما هي اليوم دفعة واحدة بل بدأت صغيرة ولم تخطر على بال مؤسسها العظيم القديس منصور دي بول انها ستبلغ ما بلغت اليه . كانت تتحل في عامها الرابع عشر . ولم يثبت رئيس اساقفة باريز قوانينها الا بعد عشرات من الاعوام ولا تصلوا عما عانته في سيرها من المتاعب والمصاعب . لا يجدوا عما اضطهدها به اعداء الخير . احتقرها الناس اولاً ونبذوها . ولما انتبهوا الى عظيم اقدامها على الماضي . وعرفوا عنه باحترامهم لها واقبالهم عليها حتى انسوها ذاك الاحتقار والاهمال

وبعبارتي انها لم تستطع ان تأتي كل ما جاءت به للخير العام الا بالمناصرة الخارجية والمساعدة العمومية ولم تقوَ على الثبات الا بالاجتهاد والاتفاق

ومن الاكيد عاماً على الجمعية الثانية واعني بها زهرة الاحسان الجمعية الوحيدة في الشرق التي عادت هذا العمر بهبة الجنس اللطيف بلا ملل . فخر

سيدات بيروت الأوفياء كبان ذات المدرسة الكبيرة والرهبة الكريمة

فهذه المدرسة التي صارت تضم في مدرستها مئتين والاثنين تلميذة في كل عام مئتين سبعون بنيهة تعولهن بلا بدل فكسيهن وتقوتهن وتعلمهن وتقدم لهن جميع احتياجات التعليم مجاناً لوجه الله والتي صارت ايراداتها السنوية تبلغ الاثنى عشرة وهاصرح كبير في بيروت ومبنى جميل في لبنان . العازمة على بناء كنيسة وشيد مبنى

هذه الجمعية بدأت صغيرة ككل جمعية ولم تخترمها قلة هذا العمر على بسط الراحة والرفاه بل قاستها من الشوك والصوان وقاست مشقات عديدة الى ان تيسر لها الوصول الى مقامها الحالي ولو لم تكن مؤسستها الفاضلة الحاجة مريم حيشان قد برهنت على استعدادها واخلاصها باثر غراء قبل انشائها ولو لم تكن رئيستها الحالية الشهيرة السيدة امالي مرسن اهلا لثقة الناس بها . ولو لم تكن نية الاعضاء غيورات بمجهودات ولو لم يتخذن جميعهن مبدأ انكار الذات شعاراً لهن ولو لم يبق في وجوه المزدرين بالمشروع والباخلين عليه ثبات الابطال . ولو لم يقبل عليهن الناس بالتنشيط والمساعدة تجاه ما عانينه من تثبيط البعض لهمهن وقبض ايديهم عن مساعدتهن لولا كل ذلك لما استطاعت زهرة الاحسان ان تصير كما صارت . ولكانت الطائفة قد حرمت المنافع التي استفادتها منها

فترون اذاً مما تقدم انه لا يستحيل على جمعية تهذيب الفتاة السورية ان تبلغ يوماً ما مقاماً عظيماً تستطيع به ان تفيد بلادها عظمى الفوائد . ترون ان هذه الجمعية تحتاج الى المناصرة والمساعدة لتصير قادرة على الافادة . ترون وجوب التوسع في النظر اليها بناء على ما يرجى من خيرها في المستقبل . وانها ما زالت مجتهدة في الشغل مخلصة في العمل ما دامت مستقيمة في السير ثابتة

في الجهاد فانها تفوز بعناية الله وموازرتكم فوزاً مبيناً يرجع النفع منه الى صميم قلب الامة

والامل عظيم بتأكيدكم العناية الجمعية وبإقبالكم على تنشيطها ومعاونتها وبتأييدكم حسن استهدافها تأييد ثقتكم بها وهي باقدامها على هذا المشروع غنية عن المدح والاطراء . ويصح فيها قول ام لمونيل ملك مصر — اعطوها من ثمر يديها وتمدحها اعمالها في الابواب —

تكلمت عن اخوات المحبة وزهرة الاحسان ما فيه عبرة تهذيب الفتاة من حيث الجمعية . لان النتائج تكون بنسبة المقدمات والاسباب . وحينما تأملت هذه توارت ذاك

بقي امر آخر تبادر الى ذهني بداهة عندما دعتني عمدة هذه الجمعية لاحاديثكم في هذه الحفلة اراى فرصة مناسبة لابدائه الآن . فارجو الانتباه اليه

امر مؤكد ثابت لا يرد عليه ولا جدال فيه . امر صحيح نرى نتائجه في كل وقت واضحة للعيان كالشمس في رابعة النهار

وهو ان الاستعداد الطبيعي في الانسان لا يبدو جلياً الا بالتربية والتعليم والتهذيب ولا يقوى على الاستفادة والافادة بدون هذه الامور كما يقوى عليها بها . بل تذهب معظم قواه سدى وينضر اكثر مما ينتفع وينفع وهكذا ينال منه الضرر ويفوت النفع

فالفتاة السورية المتوفر فيها الاستعداد الطبيعي لتكون عظيمة في العالم او على الاقل لتحسن السير في سبل الحياة بمقتضى الحق والواجب . هي اولى بالاعتناء بها منها بالخاملة واحق بالتربية والتعليم والتهذيب ولو كان هذا من حق الجميع على السواء . لان ما يرجى منها لنفسها ولذويها والامة لا يرجى من تلك ولا ينتظر . وليست القوى العظيمة كالصغيرة ولا المحدود كالشامل

ومن سوء حظ البشر ان القوى الطبيعية العظيمة كثيراً ما تتوفر بين الطبقة المتوسطة الحال التي لا يمكنها في كل وقت ان توفر من ايرادها ما تتمكن به من احسان تربية بنيها وتعليمهم وتهذيبهم في المدارس العالية وذلك خصوصاً بالنسبة لاشتداد ساعة الحاجات الاجتماعية عليهم . العادات المتلفة لهال اكثر مما تستلزم حقائق الاحوال . فضلاً عن كون الفئة الكبرى من الناس لا يمكنها ان توفر شيئاً كافياً لنفقات التعليم الابتدائي فكيف العالي

ومن هذا يتضح ان الامة السورية بحتاج شديد الى مثل هذه الجمعية لاسيما في هذا الوقت الذي لا يزال فيه جمهور غفير من البشر ينكر على البنات حق العلم ويضن بالجيرة في سبيل تعليمهن ولو كان غنياً كبيراً واذا كان معظم الناس لا يزالون عاجزين عن كفاية صبيانهم مما يلزمهم من المعارف والاداب مع اعتقادهم بانهم اكثر استحقاقاً لعلم من بناتهم لما يرجى منهم من النفع فكيف نرجو رقية الفتاة المستعدة المسرة ولا مدارس مجانية عندنا ولاجمعيات لتعليم والتهذيب

صار عندنا من المتعلمين فئة كبيرة فصرنا باحتياج شديد الى متعلمات يوازي عددهن على الاقل عددهم . انه ليستطيع المتعلم ان يجد له قرينة متعلمة . وان لم يكن ذلك خير العموم فلبكن خير الافراد

وسلام على اليوم المقدس العظيم . اليوم الذي ترقى فيه بنات سوريا ترقي ابنائها . ويسر سعيهم بنشاط في سبيل الرقي المستمر . سلام عليه وعلى الساعين والساعيات اليه . وعلى المساعدين والمساعدات اجمل سلام